قال كان أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير ومعلوم
أن من كان على رأسه طائر لا يبرح ولا يتحرك ولا يطرف
بعينه حذرا أن ينفر الطائر وقال ابن المقفع كان لي
صديق من أعظم الناس في عيني وكان رأس ما عظمه
في عيني صغر الدنيا في عينه كان خارجا من سلطان بطنه
فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد وكان خارجا من
سلطان فرجه فلا يدعو إليه مؤنة ولا يستخف له رأيا وكان
خارجا من سلطان الجهالة فلا يقدم أبدا إلا على ثقة لمنفعة
كان أكثر دهره صامتا فإذا قال بذ القائلين وكان
مستضعفا فإذا جاء الجد فهو الليث عاديا كان لا يدخل في
دعوى ولا يشترك في مراء ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضيا
عدلا وشهودا عدولا وكان لا يلوم أحدا على ما يكون العذر
في مثله حتى يعلم ما اعتذاره وكان لا يشكو وجعه إلا من
يرجو عنده البرء ولا يستشير أحدا إلا من يرجو عنده
النصيحة لهما جميعا وكان لا يتبرم ولا يتسخط
ولا يتشكى ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الولي
ولا يخص على إخوانه بنفسه بشيء من اهتمامه وقدرته
فاحب هذه الآثار وإن لم تطق فأخذ القليل خير من ترك
الجميع وروي أن حكيما سمع رجلا يذم الزمان وأهله
ويذكر فساد الناس وعدم من يصحب فقال يا هذا إنك
تطلب صاحبا تؤذيه فلا ينتصر وتنال منه فلا يتعصب
وتجفو عليه فيحلم فلم تنصف في الطلب ولن تجد حاجتك
ولكن إن أردت صاحبا يؤذيك فلا تنتصر ويجفوك
فلا تنتقم وجدت أصحابا وأنا أول من يصحبك

فصل في الفرق بين المداهنة والمداراة

من دارى فقد سلم ومن داهن أثم وهذا باب اختلط

معظم

معظم الخلق في المداهنة وهم يحسبون أنهم يدارون
فالمداهنة منهي عنها والمداراة مأمور بها قال الله
سبحانه في المداهنة ودوا لو تدهن فيدهنون وقال
النبي صلى الله عليه وسلم في المداراة رأس العقل بعد الإيمان
بالله التودد إلى الناس وأمرت بمداراة الناس كما أمرت
بأداء الفرائض وإذا سمعت المداراة رجعت عن المداهنة
فالمداهنة أن تداري الناس على وجه يذهب به دينك
والمداراة فيما ينفعهم على وجه يسلم لك دينك
وذلك أن هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم
وقد قالت له قريش يا محمد اعبد آلهتنا
سنة ونؤمن بك فأبى وقالوا له تمسح آلهتنا فأبى فقالوا له
يوما فأبى فقالوا له فمس أعتابها فأبى فقالوا استلمها بيدك
ونؤمن بك فوقف النبي في ذلك وطمع أن يفعل أن يؤمنوا
فأنزل الله تعالى ودوا لو تدهن فيدهنون وقيل له لولا
أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذا لأذقناك
ضعف الحياة وضعف الممات ومثاله أن تهنئ الظالم
بفعله المكروه ومن دعا للظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصي
الله تعالى وهذا باب ينبغي للعبد الحذر منه حفظه وقد
رأى بعض الفقهاء الخروج من هذه العهدة بالتعريض
كان الفقيه ابن الحطاب يقضي له تاجر نصراني
بعض حوائجه وكان الفقيه يكثر أن يقول له أبقاك الله
وتولاك وأقر عينك بما يسرك والعم ما يسرك جعل
الله يومي قبل يومك لا يزيد على هذه الكلمات
فيعجب النصراني ويسر بصوت الفقيه
فيه ذلك فقال إنما أدعو بتعريض وقد عوتب
ذلك من يقتضي إنما قولي أبقاك الله وتولاك كما أنا أريد

Copyright © King Saud University